العدد 13 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية نيسان 2026
No. 13 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences April 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

أثر التناسب البياني في صياغة الجملة القرآنية: دراسة في لغويات النظم

م .م . حسن رضا عبد زغير
المديرية العامة للتربية في بابل
hasanrudha@gmail.com

الملخص

يستقصي هذا البحث مكنونات "التناسب البياني" بوصفه الركيزة الجمالية والهندسة الخفية التي تُشيّد صرح الجملة القرآنية في أدق تفاصيلها. تنبع إشكالية الدراسة من تساؤل جوهري حول الكيفية التي تتحكم بها مقتضيات المناسبة في اصطناع "الصيغة الصرفية" وتوجيه "الرتبة النحوية" داخل النظم القرآني المعجز إذ يسعى البحث إلى فك الارتباط بين الاستخدام اللغوي النمطي وبين الفرادة القرآنية التي تجعل من كل مفردة وتركيب استجابة حتمية لسياقها الخاص. اعتمدت الدراسة منهجاً تحليلياً يزاوج بين عراقة "نظرية النظم" عند عبد القاهر الجرجاني وبين المنجزات الحديثة في "لسانيات النص" بهدف البرهنة على أن الجملة القرآنية ليست مجرد رصفٍ لغوي، بل هي نسيج عضوي محكم تتضافر فيه المستويات الصرفية والتركيبية لتؤدي وظائف دلالية ومقصدية لا تنفصم عراها. وقد خلص البحث إلى نتائج علمية هامة، أبرزها أن "التناسب" يمثل القانون الأعلى والحاكم في النص القرآني فكل عدولٍ صرفي أو تقديمٍ نحوي ليس ترفاً أسلوبياً، بل هو ضرورة بيانية تفرضها وحدة النص الكلية وتماسك مقاصده الكبرى. كما أثبتت الدراسة أن إعجاز النظم ينبع من هذه المزاوجة الدقيقة بين اختيار اللفظة وتناسبها مع بيئتها اللغوية والمقامية، مما يعزز من سمة الإعجاز اللساني المطلق للقرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: التناسب البياني، الجملة القرآنية، نظرية النظم، لسانيات النص، الإعجاز اللساني.

The Impact of Rhetorical Proportion on the Formulation of Qur'anic Sentences: A Study in the Linguistics of Composition

A.L. Hassan Reda Abdul Zaghir
General Directorate of Education in Babylon

Abstract

This research investigates "Graphic Proportionality" as the foundational aesthetic and structural principle that constructs the Quranic sentence. The central problem addresses how the requirements of proportionality dictate the selection of "morphological forms" and "syntactic order" within the miraculous Quranic composition. The study aims to decouple conventional linguistic usage from Quranic uniqueness, where every word and structure serves as an inevitable response to its specific context By bridging the authenticity of Al-Jurjani's "Theory of Composition" with contemporary "Text Linguistics," the research demonstrates that the Quranic sentence is not merely a linguistic arrangement but an integrated organic fabric where morphological and syntactic levels converge to serve unique semantic and teleological functions The findings reveal that "proportionality" is the supreme law governing the text; every linguistic deviation or displacement is a graphic necessity imposed by the text's holistic unity and its overarching purposes. The study concludes that Quranic inimitability arises from the perfect harmony between a word choice and its linguistic and situational environment, reinforcing the Quran's status of absolute linguistic miracle.

Keywords: Graphic Proportionality, Quranic Sentence, Theory of Composition, Text Linguistics, Linguistic Inimitability.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب هدىً ونوراً، وجعل لغته الشريفة وعاءً لسر إعجازه الخالد والصلاة والسلام على المبعوث بروح البيان سيدنا محمد الذي أوتي جوامع الكلم وعلى آله وصحبه الذين فقهوا أسرار النظم ووعوا مقتضيات الخطاب، وبعد:

فإنَّ النص القرآني يمثل الذروة العليا في السمو اللغوي حيث تتآلف كلماته في نسيجٍ محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإنَّ أعظم ما يبهر المتأمل في هذا النظم هو تلك الهندسة الدقيقة التي تُصاغ بها الجملة؛ إذ لا تكتفي المفردة بنقل الدلالة الذهنية فحسب، بل هي جزء من منظومة جمالية "متناسبة" تربط الصوت بالصيغة، والصيغة بالرتبة، في اتساقٍ يعجز البشر عن محاكاته أو استبدال لبنة من لبناته.

بيان الموضوع :

يتمحور موضوع هذا البحث حول استقراء "التناسب البياني" بوصفه الموجه الأساسي لصياغة الجملة القرآنية. والمقصود بالتناسب هنا هو تلك العلاقات الرابطة بين العناصر اللغوية داخل النظم، والتي تجعل اختيار صيغة صرفية بعينها، أو تقديم رتبة نحوية على أخرى، ضرورةً تقتضيها وحدة المعنى ومناسبة السياق. إن البحث يسعى لتتبع "لغويات النظم" من خلال رصد أثر هذا التناسب في المستويات اللسانية المختلفة (الصرفية، والنحوية، والدلالية) وكيف يسهم في تشكيل المعنى القرآني الفريد.

مشكلات البحث:

تتبدى مشكلة البحث في محاولة فض مغاليق تساؤل مركزي: ما المنطق الجمالي والدلالي الذي يحكم تباين صياغة الجملة القرآنية في مواضع التشابه؟ ويتفرع عن هذا التساؤل جملة من المشكلات الفرعية:

- هل العدول في الصيغة الصرفية (كالانتقال من الماضي للمضارع) هو مجرد تنويع أسلوبي أم استجابة لمقتضى التناسب السياقي؟
- كيف يتدخل التناسب في إعادة ترتيب عناصر الجملة (التقديم والتأخير) لتوجيه بؤرة التركيز الدلالي؟
- إلى أي مدى يساهم "التناسب البياني" في تحقيق التماسك النصي الذي يجعل السورة القرآنية وحدة عضوية متكاملة؟

أهمية البحث :

تستمد هذه الدراسة أهميتها من النقاط الآتية:

- القيمة العلمية: الربط الوظيفي بين القواعد النحوية الصارمة واللطائف البلاغية، مما يخرج الدرس اللغوي من الوصف الإعرابي الجامد إلى التحليل البياني الحي.
- القيمة الإعجازية: إثبات وجه من أدق وجوه الإعجاز اللساني، وهو "إعجاز النظم" الذي يثبت أن كل تغيير لفظي يقابله إضافة دلالية جوهرية.
- المواكبة المنهجية: الاستفادة من معطيات لسانيات النص الحديثة في قراءة التراث البلاغي (نظرية النظم)، مما يفتح آفاقاً جديدة للبحث الأكاديمي الرصين.

أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- تأصيل مفهوم "التناسب البياني" في ضوء علوم القرآن ولسانيات النظم.
- تحليل مواضع العدول الصرفي والتركيبي في الجملة القرآنية وبيان عللها البيانية.
- الكشف عن دور السياق (المقالي والمقامي) في توجيه الاختيارات اللغوية المتناسبة.
- البرهنة على التماسك الدلالي للنص القرآني من خلال المزاوجة بين اللفظ ومحيطه اللغوي.

هيكلية البحث:

لقد انتظمت هذه الدراسة في مقدمة، وثلاثة مباحث رئيسة، وخاتمة، وقائمة للمصادر والمراجع، وذلك وفق الآتي:

المبحث الأول: أثر التناسب في بنية المفردة (دراسة في المستوى الصرفي والدلالي).

المبحث الثاني: أثر التناسب في الرتبة التركيبية (التقديم والتأخير والذكر والحذف).

المبحث الثالث: التناسب في النظم الكلي واتساق النص القرآني.
الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات التي خلص إليها البحث.
المصادر والمراجع: قائمة بالمراجع الأصيلة والحديثة التي استند إليها العمل.

المبحث الأول: التناسب البياني في بنية الجملة (المستوى الصرفي والدلالي)

إن الحديث عن "التناسب البياني" هو في حقيقته حديث عن "الحكمة اللغوية" ففي القرآن الكريم لا نجد كلمة وُضعت مكان أخرى من قبيل الترادف الساذج بل هو اختيارٌ قائم على "المناسبة" التامة بين اللفظة ومحيطها اللساني. إن لغويات النظم، كما أصلها الجرجاني تخبرنا أن "الكلم لا يتفاضل من حيث هو كلم، بل بما تضمه الصنعة"[1]. إن هذا التناسب يمثل الخيط الرفيع الذي يربط "هيئة الكلمة" الصرف بـ "مقصدها" الدلالة. أرى أن التناسب هنا يعمل كقوة مغناطيسية تجذب الصيغ الصرفية الأنسب لترميم المعنى الذي يحتاجه السياق فلا يكتمل الإعجاز إلا بتآلف البنية الصرفية مع الجو النفسي للآية وهو ما يخرج الجملة من حيز "الإخبار" إلى حيز "التصوير المبدع".

المطلب الأول: أثر التناسب في اختيار الصيغة الصرفية للمفردة

تتجلى عبقرية النظم القرآني في كون "الصيغة الصرفية" خادمة مخلصة للمعنى الكلي فالتغيير من صيغة الفعل إلى الاسم، أو من الماضي إلى المضارع، ليس من قبيل التلوين الأسلوبي فحسب بل هو "مطلب تناسبي". لاحظتُ أن القرآن يستخدم (اسم الفاعل) حينما يرغب في إضفاء صبغة "الثبات والديمومة" على الحدث بينما يهرع إلى (الفعل) حينما يكون المقصود هو "الحدوث والتجدد".

لنتأمل قوله تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [الأنعام: 96]؛ نجد "فالق" بصيغة اسم الفاعل، و"جعل" بصيغة الفعل الماضي. أجد مما تقدم أن هذا التناسب الصرفي يعكس رؤية إلهية دقيقة؛ ففلق الإصباح صفة ذاتية ملازمة للخالق، وهي حقيقة ثابتة لا تنقطع، فجاءت بصيغة الاسم التي تفيد الاستقرار. أما جعل الليل سكناً فهو فعلٌ يتكرر ويتجدد لخدمة الخلق، فجاءت بصيغة الفعل الماضي الذي يحمل في طياته معنى الحدوث"[2].

وعلى صعيد صيغ المبالغة يبرز التناسب كأداة لضبط الكم والكيف الدلالي ففي قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: 46] جاءت صيغة (ظلاّم) لتناسب كثرة "العبيد" المذكورين في الآية؛ فلو وقع من الله ظلمٌ (وحاشاه) لواحدٍ من مليارات الخلق لكان "ظلاماً" بالنظر إلى كثرة المظلومين "[3]. استنتجُ أن الهندسة الصرفية في الجملة القرآنية تُبنى بمقياسٍ يراعي "النسبة والتناسب" بين المفردة والواقع الخارجي الذي تصوره، مما يجعل الصيغة الصرفية جزءاً من "البرهان اللغوي" للآية، وليس مجرد حلية لفظية "[4].

المطلب الثاني: التناسب الدلالي بين المفردة وموقعها من الجملة

ينتقل بنا التناسب من "هيكل الكلمة" إلى "روحها الدلالية"، حيث تكتسب المفردة في القرآن معناها الحق من خلال "مجاورتها" لغيرها من الكلمات. إن لغويات النظم تؤكد أن المفردة القرآنية "تستحي" من أن تُخالف سياقها الدلالي. يتبين لي أن الاختيار القرآني للمترادفات (ظاهرياً) هو اختيارٌ قائم على فروقٍ دلالية دقيقة جداً يمليها التناسب.
خذ مثلاً ثنائية (جاء) و(أتى) أجدُ أن القرآن يخصّ (جاء) بالمواقف التي تحمل طابع الشدة أو الجسمية، أو الصعوبة، بينما يترك (أتى) للسياقات التي يغلب عليها اللين أو المعنوية أو السهولة. في قوله تعالى: {فَإِذَا

---

[1] ( )- الجرجاني، عبد القاهر، "دلائل الإعجاز"، تحقيق محمود شاكر، ص 188.
[2] ( )- السامرائي، فاضل صالح، "على طريق التفسير البياني"، ج1، ص 115.
[3] ( )- الزمخشري، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، ج2، ص 45.
[4] ( )- ابن جني، "الخصائص"، تحقيق محمد علي النجار، ج2، ص 150.

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} [عبس: 33] استُخدمت (جاءت) لتناسب هول القيامة وعظمة الحدث الذي يتطلب "مجيئاً" ثقيلاً في النفس والواقع "[5].

ويمتد هذا التناسب الدلالي ليشمل "الحروف" التي هي أدق أدوات النظم. في سورة الزمر يصف القرآن سوق المتقين: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} بينما في سوق الكافرين قال: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}. نلاحظ أن "الواو" في مشهد المتقين هي "واو التناسب مع مقام التكريم" فهي توحي بأن الأبواب كانت مفتوحة بانتظارهم، وهذا يتناسب مع الحفاوة الإلهية، بينما غيابها في مشهد الكفار يفيد "المباغتة"، حيث تُفتح الأبواب فجأة لحظة وصولهم ليزداد الرعب في نفوسهم "[6]. استنتجُ أن كل حرفٍ في الجملة القرآنية هو "مسمار" في بناءٍ لا يمكن نزعه دون أن يتهاوى السقف الدلالي للآية بالكامل "[7]. أرى أن التناسب الدلالي هو الذي يحمي الجملة القرآنية من الترهل الأسلوبي ويجعلها دائماً في حالة وثوبٍ بياني لا يهدأ "[8].

المطلب الثالث: التناسب الصوتي والإيقاعي وأثره في صياغة الفواصل

لا يمكننا عزل "المعنى" عن "المبنى الصوتي" في القرآن؛ فالتناسب البياني يقتضي أن يخدم "الجرس" الفكرة. إننا بصدد "هارموني" لغوي يربط بين نبرة الصوت ومقصد الآية. يتبين لنا أن لغويات النظم تدرس "الفاصلة القرآنية" بوصفها الإيقاع الذي يحفظ توازن الجملة ويوجه دلالتها.

في سورة (مريم)، نجد أن التناسب الصوتي يفرض سيطرته عبر الفواصل المنتهية بـ (الياء الممدودة)، مثل: "عليّا، رضيّا، سميّا". أجدُ أن هذا الإيقاع الرقيق والمدّ المتطاول يتناسب تماماً مع جو الرحمة، والمناجاة الخفية، والعاطفة الأبوية والزهد الذي يغلف السورة "[9]. ولو استُبدلت هذه الفواصل بأخرى شديدة (كالدال أو القاف) لاختل التناسب بين "الصوت الخارجي" و"الحالة النفسية" للنص.

كذلك يظهر أثر التناسب الصوتي في "التقديم والتأخير" لأجل الفاصلة، ولكن دون إخلال بالمعنى. في قوله تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ} [طه: 67] ألاحظُ تقديم المفعول به (خيفة) على الفاعل (موسى) ليس فقط لتناسب الفواصل (طوى، استوى، الحُسنى)، بل لأن "الخوف" في تلك اللحظة كان هو الحدث الطاغي الذي يملأ مشهد المواجهة مع السحرة"[10]. استنتجُ أن التناسب الصوتي في القرآن ليس "سجعاً" متكلفاً، بل هو "نغمٌ دلالي"؛ حيث يصبح الحرف خادماً للفكرة، وتصبح الفاصلة هي القفل الذي لا يغلق باب المعنى إلا بعد أن يطرب له الأذن ويطمئن له القلب "[11]. أرى أن هذه الصياغة الصوتية هي التي تمنح الجملة القرآنية قدرتها على اختراق القلوب حتى لأولئك الذين لا يفقهون لغتها"[12].

المبحث الثاني: أثر التناسب في الرتبة النحوية (التقديم والتأخير)

تعتبر الرتبة النحوية في اللغة العربية هي "الهوية المنظمة" للجملة، غير أن النظم القرآني يكسر رتابة هذه الرتبة عبر ظاهرة التقديم والتأخير، لا طلباً للتغيير الشكلي، بل خضوعاً لقانون "التناسب البياني". إن لغويات النظم لا تكتفي بالسؤال: (لماذا تقدم هذا العنصر؟)، بل تسأل: (ماذا خسر المعنى لو بقي في مكانه الأصلي؟). يتبين لي أن الرتبة في القرآن هي رتبة "قيمية" قبل أن تكون رتبة "نحوية"؛ فالمقدم هو الأهم

---

[5] ( )- الإسكافي، الخطيب، "درة التنزيل وغرة التأويل"، ص 92.
[6] ( )- ابن القيم الجوزية، "بدائع الفوائد"، دار الكتاب العربي، ج3، ص 15.
[7] ( )- الرازي، فخر الدين، "التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)"، دار إحياء التراث العربي، ج12، ص 88.
[8] ( )- دراز، محمد عبد الله، "النبأ العظيم"، دار القلم، ص 140.
[9] ( )- السيوطي، جلال الدين، "معترك الأقران في إعجاز القرآن"، ج1، ص 345.
[10] ( )- الزركشي، بدر الدين، "البرهان في علوم القرآن"، ج1، ص 55.
[11] ( )- البقاعي، برهان الدين، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ج4، ص 215.
[12] ( )- قطب، سيد، "التصوير الفني في القرآن"، دار الشروق، ص 95.

في سياق العناية، أو الأسبق في الوجود، أو الأوقع في النفس. إن التناسب في هذا المبحث يظهر كحلقة وصل تربط بين حركات الإعراب وبين بؤرة التركيز الدلالي، مما يجعل الجملة القرآنية بناءً مرناً يتشكل وفقاً لحاجة المعنى ومقتضى الحال.

المطلب الأول: تقديم العناصر اللغوية لمقتضيات التناسب السياقي

يعد التقديم والتأخير في القرآن الكريم من أدق الوسائل اللسانية لتحقيق "الانحراف الإيجابي" الذي يخدم التناسب. أجدُ أن السياق هو الحاكم الأعلى في توزيع الأدوار داخل الجملة؛ فما حقه التأخير قد يُدفع إلى الصدارة لأن جو الآية يطلبه طلباً حثيثاً. لنتأمل فاتحة الكتاب في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}؛ فقد تقدم المفعول به (إياك) على الفعل (نعبد). يظهر لي مما تقدم أن هذا التقديم ليس مجرد تبرير لموسيقى الفاصلة، بل هو "تقديمٌ عقدي" يهدف إلى قصر العبادة والاستعانة على الله وحده، وهو ما يتناسب تماماً مع موضوع السورة الذي هو (التوحيد والثناء) "[13].

وفي سياقٍ آخر نجد التقديم يخدم "الخصوصية المكانية" كما في قوله تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ} [الصافات: 47] حيث قدم الجار والمجرور (فيها) على المبتدأ (غول). لاحظتُ أن هذا التقديم أفاد قصر النفي على خمر الجنة، أي أنها وحدها المنزهة عن إذهاب العقل، بخلاف خمر الدنيا. استنتجُ أن التناسب السياقي هنا يعمل كموجه للرتبة النحوية؛ فلو أُخر المفعول به أو شبه الجملة لضاع معنى (الاختصاص) الذي هو جوهر الرسالة في تلك المواضع "[14]. إن لغويات النظم تثبت أن التقديم في القرآن هو "إعادة هيكلة" للوعي بالكلمات، حيث يتم ترتيب العناصر وفقاً لسلم أولويات المقصد الإلهي "[15]. أرى أن الطالب والباحث حين يدرك سر التقديم، ينتقل من مستوى "النحو الوصفي" إلى مستوى "النحو الوظيفي" الذي يربط اللفظ بالمعنى"[16].

المطلب الثاني: أثر التناسب في ظاهرتي الحذف والذكر

يمثل الحذف في القرآن قمة "الإيجاز الإعجازي"، وهو محكوم دائماً بضرورة التناسب. يتبين لنا أن القرآن يحذف ما يُعلم بالضرورة ليترك مساحة لخيال السامع، أو ليحقق تناسباً إيقاعياً مع رؤوس الآيات. في سورة الليل: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ}؛ نلحظ حذف المفعول به للفعل (أعطى). أجدُ أن هذا الحذف حقق غايتين تناسبيتين: الأولى معنوية وهي "العموم"، فكأن المعنى أعطى كل ما يجب أن يُعطى، والثانية صوتية وهي الاتساق مع الفواصل المنتهية بالألف المقصورة (الحُسنى، لليُسرى)"[17].

بالمقابل، نجد "الذكر" يأتي في سياق يقتضي مقام التفصيل أو التوكيد، ليتناسب مع مقام التشريع والوضوح. في قوله تعالى: {أَوْ نَسِيَتْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: 106]؛ فقد ذُكرت "منها" و"مثلها" تأكيداً للمساواة والمقارنة التناسبية في مقام النسخ. استنتجُ أن الحذف والذكر في الجملة القرآنية هما وجهان لعملة واحدة هي "الاقتصاد اللغوي التناسبي"؛ فإذا كان السياق سياق امتنان ورحمة كثر الحذف لإفادة الشمول، وإذا كان سياق تعليم وحساب كثر الذكر والبيان "[18]. لاحظتُ أن الحذف في القرآن هو "ذكرٌ من نوع آخر"، لأنه يدعو العقل لاستحضار المحذوف بما يتناسب مع القرائن الموجودة "[19] أرى أن هذا المبدأ هو الذي يمنح النص القرآني صفة "النص المفتوح" الذي يتجدد فهمه بتجدد وعي القارئ بالقرائن "[20].

---

[13] ( )- الجرجاني، عبد القاهر، "دلائل الإعجاز"، تحقيق محمود شاكر، ص 118.
[14] ( )- السامرائي، فاضل صالح، "معاني النحو"، ج4، ص 215.
[15] ( )- الزمخشري، "الكشاف"، ج1، ص 68.
[16] ( )- أبو حيان الأندلسي، "البحر المحيط في التفسير"، ج1، ص 22.
[17] ( )- الزركشي، بدر الدين، "البرهان في علوم القرآن"، ج3، ص 105.
[18] ( )- السيوطي، جلال الدين، "الإتقان في علوم القرآن"، ج2، ص 165.
[19] ( )- تمام حسان، "اللغة العربية: معناها ومبناها"، عالم الكتب، ص 315.
[20] ( )- ابن القيم الجوزية، "بدائع الفوائد"، ج2، ص 48.

المطلب الثالث: التناسب البياني في أساليب القصر والحصر

يُستخدم القصر في القرآن كأداة هندسية لربط المنطوق بالمفهوم عبر تناسبٍ دقيق بين الأداة والغرض. يتبين لي أن صياغة أساليب القصر (بـ إنما، أو النفي والاستثناء) تتبع دائماً منحنى التناسب النفسي والدلالي للآية. لنتأمل قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28]. أجدُ أن القصر بـ (إنما) مع تقديم المفعول به (الله) وتأخير الفاعل (العلماء) قد حقق تناسباً مذهلاً مع سياق الآية الذي يتحدث عن عجائب الخلق في الجبال والثمار والدواب فهذا العرض الكوني يقتضي أن يكون "حصر الخشية" موجهاً لمن يمتلكون أدوات "العلم" لإدراك هذه العظمة"[21].

وفي مقام الرد على المنكرين أو المثبطين، نجد التناسب يفرض القصر بـ (ما وإلا) لقوته في دحض الادعاءات. قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} [آل عمران: 144] جاء هذا القصر ليتناسب مع موقف الاضطراب والشك الذي أصاب المسلمين يوم أُحد حين شاع خبر مقتله. استنتجُ أن أسلوب القصر هنا عمل كـ "كابح دلالي" يعيد الأمور إلى نصابها التناسبي الصحيح فالرسالة باقية والرسول يموت. أرى أن التناسب في أساليب القصر يحول الجملة من مجرد "خبر" إلى "قانون" لا يقبل التجزئة "[22]. لاحظتُ أن هذا التناسب هو الذي يمنح الجملة القرآنية قوتها الإقناعية، حيث يوضع كل قيدٍ في مكانه المناسب لتحقيق "الإصابة الدلالية" المباشرة"[23]. إن "لغويات النظم" تجعل من القصر أسلوباً لا يستهدف حصر الكلمات، بل حصر الحقيقة في عقل المتلقي"[24].

المبحث الثالث: التناسب في النظم الكلي (اتساق الجمل والآيات)

ينتقل بنا التناسب البياني في هذا المبحث من ضيق الجملة المنفردة إلى سعة "النظم الكلي" حيث تتجلى الوحدة العضوية للنص القرآني كبنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً. إن لغويات النظم لا تنظر إلى الآيات كجزر منعزلة، بل كحلقات في سلسلة ذهبية محكمة السبك. التناسب هنا هو "الروح الكلية" التي تجعل الانتقال من قصة إلى حكم أو من وعد إلى وعيد، انتقالاً انسيابياً تفرضه حكمة البيان. أجدُ أن هذا المستوى من التناسب هو الذي يحول السورة الطويلة إلى "وحدة نصية" متماسكة، حيث يعمل التناسب كخيط خفي يربط بين الفواصل وصدور الآيات، وبين مطالع السور وخواتيمها. أرى أن سر الإعجاز في النظم الكلي يكمن في "الاتساق الدلالي" الذي يمنع التفكك مهما تعددت الأغراض، مما يجعل النص القرآني متفرداً في قدرته على الحفاظ على نبرة بيانية واحدة وقوية من أول آية إلى آخرها.

المطلب الأول: أثر التناسب في الربط بين صدر الجملة وعجزها

يمثل الربط بين صدر الآية وخاتمتها (الفاصلة) أرقى أشكال التناسب البياني، حيث تظهر الخاتمة كدليل قاطع ونتيجة حتمية لما بُنيت عليه الجملة في صدرها. إن لغويات النظم ترفض فكرة أن الفواصل القرآنية جاءت لمجرد السجع الصوتي، بل تؤكد أنها "أقفال دلالية" توضع بميزان دقيق. ألاحظُ أن هذا التناسب يتجلى بوضوح عند اقتران الأحكام بأسماء الله الحسنى؛ ففي قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} "[25]. يتبين لنا أن الختم بصفة (العزة والحكمة) هو اختيار تناسبي عبقري؛ فالعزة تقتضي القدرة على التشريع والزجر والحكمة تقتضي وضع العقوبة المناسبة للجرم. ولو خُتمت الآية بـ (غفور رحيم) لاختل التناسب مع مقام "النكال" والردع "[26].

إن هذا النوع من التناسب يعمل على ترسيخ المعنى في نفس السامع حيث يمهد "الصدر" للعقل ليتلقى "العجز" كحقيقة مطلقة. استنتجُ أن التناسب بين البداية والنهاية في الجملة القرآنية يحقق ما يسمى بـ "الإقناع

---

[21] ( )- ابن عاشور، محمد الطاهر، "تفسير التحرير والتنوير"، ج22، ص 308.
[22] ( )- فضل حسن عباس، "البلاغة: فنونها وأفنانها"، ص 245.
[23] ( )- الخطيب القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة"، ص 158.
[24] ( )- السامرائي، فاضل صالح، "بلاغة الكلمة في التعبير القرآني"، ص 185.

[25] ( )- البقاعي، برهان الدين (ت 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص 450
[26] ( )- السامرائي، فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، ص 95.

الجمالي"، حيث ينسجم الجرس الموسيقي للفاصلة مع مقتضى الحال الدلالي. أرى أن إهمال هذا التناسب في الدراسات اللسانية الحديثة يُفقد النص أعظم أدوات تماسك الخطاب. وفي قوله تعالى لموسى: {يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} "[27] نجد أن الفاصلة جاءت لترسيخ هيبة المقام وعظمة المتكلم في لحظة التكليف الأولى، مما يجعل النفس تخضع لعظمة "العزيز" وتطمئن لتدبير "الحكيم". يظهر لي أن هذا النظام التناسبي هو الذي يجعل الجملة القرآنية محكمة البناء لا يتقدم فيها جزء على جزء إلا لضرورة بيانية تفرضها وحدة النظم "[28].

المطلب الثاني: التناسب البياني في الالتفات والعدول عن مقتضى الظاهر

يعتبر "الالتفات" من أقوى أساليب التناسب التي تجدد نشاط المتلقي وتنقله بين أساليب الخطاب (من الغيبة إلى الحضور أو العكس) لغايات دلالية عميقة. إن لغويات النظم ترى في الالتفات "عدولاً تناسبياً" يراعي تقلبات النفس البشرية ومقتضيات الموقف البياني. لاحظتُ ذلك في سورة الفاتحة؛ إذ يبدأ السياق بالغيبة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وهو مقام ثناء كلي ثم ينتقل فجأة إلى الخطاب المباشر: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} "[29]. أجدُ أن هذا الانتقال حقق تناسباً مذهلاً مع مقام القرب؛ فبعد أن استشعر العبد عظمة ربه، صار من الأنسب أن يخاطبه كفاحاً ومناجاة. هذا "العدول" هو الذي يمنح النص حيويته ويجعله متصلاً بوجدان القارئ"[30].

كذلك يظهر التناسب في تقديم الجار والمجرور للعدول عن الرتبة الأصلية، كما في قوله تعالى: {وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ} "[31]. يتبين لي أن تقديم (إلى الله) على فعل الحشر جاء ليتناسب مع مقام ترغيب المؤمنين في الآخرة وتصبيرهم على القتل؛ فالمهم في سياق الآية ليس عملية "الحشر" بحد ذاتها، بل "جهة الحشر" وهي الله سبحانه فكان تقديم لفظ الجلالة هو الأنسب لجبر الخواطر. استنتجُ أن الالتفات والعدول في القرآن هما "هندسة نفسية" تهدف إلى لفت انتباه السامع وتوجيه قلبه نحو "البؤرة المعنوية" الأهم في السياق. أرى أن هذا التناسب يكسر رتابة القول ويجعل النص في حالة تجدد دائم، بحيث لا يشعر القارئ بالملل مهما طال النص، لأن "الالتفات" يعمل كمنبه لغوي يحقق الاتساق بين الفكر واللفظ "[32].

المطلب الثالث: لغويات النظم: دراسة في تماسك النص من خلال التناسب

تمثل "لسانيات النص" الغاية القصوى لدراسة التناسب، حيث تدرس الروابط التي تجعل الجمل القرآنية تتماسك لتشكل "وحدة نصية" واحدة التناسب هنا يتجاوز الجمل المتجاورة ليربط بين موضوعات السورة كاملة. أجدُ أن التناسب الكلي يتجلى في اختيار أدوات الربط (كالواو، والفاء، وثم) بميزان دقيق؛ فالفاء تفيد التعقيب بما يتناسب مع مواقف الاستجابة الفورية، بينما تفيد (ثم) التراخي بما يتناسب مع مراحل الخلق أو الابتلاء "[33]. يظهر لي أن هذا التماسك هو الذي يجعل السورة القرآنية تبدو كأنها "كلمة واحدة" حيث تمهد كل جملة لما بعدها وتستدعي ما قبلها في نظام اتساقي مذهل "[34].

إن دراسة "التماسك النصي" عبر التناسب تثبت أن القرآن نص محكم البناء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. استنتجُ أن هذا التماسك هو ثمرة التناسب بين "المحاور الموضوعية" و"الصياغة اللغوية"؛ ففي سورة (يوسف) مثلاً نجد كل جملة تتناسب مع محور "الصبر والتمكين"، مما يخلق حالة من "الوحدة العضوية" التي تعجز القدرات البشرية عن محاكاتها. لاحظتُ أن التناسب الكلي هو الذي يمنح القرآن قوته الإقناعية الهائلة، حيث يشعر القارئ أنه أمام بناء مرصوص بعناية فائقة، لا يمكن نزع حجر منه دون أن يتداعى البنيان. أرى في الختام أن لغويات النظم هي المدخل الحديث لفهم الإعجاز القديم، وأن التناسب هو

---

[27] ( )- ابن عاشور، محمد الطاهر (ت 1393هـ)، تفسير التحرير والتنوير، ج6، ص 180.
[28] ( )- الزمخشري، جار الله (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج1، ص 540.
[29] ( )- الجرجاني، عبد القاهر (ت 471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ص 250.
[30] ( )- العلوي، يحيى بن حمزة (ت 745هـ)، الطراز في أسرار البلاغة، ج2، ص 112.
[31] ( )- المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، ، ص 188.
[32] ( )- فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ، ص 120.

[33] ( )- الزركشي، بدر الدين (ت 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، ، ج1، ص 35.
[34] ( )- فان دايك، تيون، نحو النص: دراسة بحثية، ترجمة سعيد بحيري ، ص 210.

"السر الإلهي" الذي جعل من القرآن نصاً خالداً يتحدى الزمان بجمال سبكه وقوة اتساقه"[35]. يتضح لنا أن التماسك النصي هو الغاية الكبرى التي يسعى إليها التناسب البياني، لتحقيق التمام والكمال في الخطاب الإلهي"[36].

الخاتمة

بعد هذا البحث في "أثر التناسب البياني في صياغة الجملة القرآنية" خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- بنيوية التناسب: أثبت البحث أن التناسب ليس زينة لفظية، بل هو قانون بنيوي يحكم اختيار المفردة وصياغة الجملة، ويربط بين الصوت والصيغة والمعنى.
- مرونة الرتبة: أن التقديم والتأخير والحذف والذكر في القرآن هي أدوات "هندسة بيانية" تخضع لمقتضيات التناسب السياقي والنفسي، وليست مجرد تلاعب بالرتب النحوية.
- الاتساق النصي: تبيّن أن تماسك النص القرآني يعود إلى وحدة التناسب بين صدور الآيات وفواصلها، مما يجعله نصاً معجزاً في نظمه الكلي الذي يجمع بين أصالة التراث ومعاصرة اللسانيات.

قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم

- الأنباري، أبو البركات، كمال الدين بن محمد (ت 577هـ): الإنصاف في مسائل الخلاف، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1961م.
- البقاعي، برهان الدين، إبراهيم بن عمر (ت 885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (د.ط)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1984م.
- تمام حسان (دكتور): اللغة العربية: معناها ومبناها، ط5، عالم الكتب، القاهرة، 2006م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني، القاهرة، 1992م.
- ابن جني، أبو الفتح، عثمان (ت 392هـ): الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط1، دار الهدى للطباعة، (د.س).
- دراز، محمد عبد الله (دكتور): النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ط9، دار القلم، الكويت، 1970م.
- الرازي، فخر الدين، محمد بن عمر (ت 606هـ): مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
- الراجحي، عبده (دكتور): التطبيق النحوي، (د.ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م.
- الزجاجي، أبو القاسم، عبد الرحمن بن إسحاق (ت 337هـ): الإيضاح في علل النحو، تحقيق: مازن المبارك، ط1، دار النفائس، بيروت، 1973م.
- الزركشي، بدر الدين، محمد بن عبد الله (ت 794هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957م.
- الزمخشري، جار الله، محمود بن عمر (ت 538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.
- السامرائي، فاضل صالح (دكتور): معاني النحو، ط2، دار الفكر، عمان، الأردن، 2000م.
- ابن السراج، أبو بكر، محمد بن السري (ت 316هـ): الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.

[35] ( )- السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 280.
[36] ( )- مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج1، ص 302.

- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان (ت 180هـ): الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر (ت 1393هـ): تفسير التحرير والتنوير، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- أبو المكارم، علي (دكتور): أصول التفكير النحوي، ط1، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2002م.
- المخزومي، مهدي (دكتور): في النحو العربي: نقد وتوجيه، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، 1986م.
- مطلوب، أحمد (دكتور): معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م.